ما هو احسن كتاب قرأته في موضوعه ؟..

وجه الي الاديب التونسي السيد مصطفى بن حميدة هذا السؤال فاجبته بما يلي:

لا يمكن الجواب باطلاق عن هذا السؤال، وخصوصا لمن كان مثلي على كثرة ما قرأ من الكتب في الموضوع الواحد، لا تزال امامه لائحة طويلة بالكتب التي لم يقرأها في كل موضوع. فانا اذا تمنيت ان اعيش طويلا، فانما اتمنى ذلك لاجل ان استوعب ما اريد من الكتب. واذا كان ثابت البناني قال: «اللهم ان كنت اعطيت احدا من خلقك الصلاة في قبره، فأعطنيها» وقيل انه كشف عن قبره فوجد قائما يصلي - فانا ادعو الله القادر الذي لا يعجزه شيء، ان يمتعني في الحياة الاخرى بغرفة مطالعة، تجبى اليها ثمرات العقول: من كتب ومجلات، وصحف ادبية، ودواوين شعرية قديمة وحديثة؛ حتى اكون على اتصال تام بالحياة الفكرية في الدار الدنيا قبل فنائها، وامتع نفسي فى الجنة بعد فناء هذه الدار باعظم لذة روحية في نظري. واللذة الوحيدة في نظر الرازي كما قال في جمع الجوامع: «وحصرها الامام والشيخ الامام في المعارف»!..

ومن هنا اعتبر انى لم احط باي موضوع، فلا اعرف احسن كتاب فيه.

ومن وجه آخر فانه اذا كانت اكثرية الكتب مكررة لبعضها، فان كتبا كثيرة لا يمكن ان ينسحب عليها هذا الحكم؛ لانها تتمم البعض الآخر ولا تكرره. وهل يمكن للاديب ان يستغني بالعقد (ولا اقول الفريد فان مؤلفه لم يسمه بذلك) عن (عيون الاخبار)، او بهذين معا عن (الاغاني) ؟..

لذلك فان تعيين كتاب واحد، في موضوع واحد والقول بانه احسن ما قرأت، يكون فيه تسامح كبير، وان شئت فقل ظلم كبير!..

غير اني استثني من ذلك، الكتاب الازلي الخالد؛ كتاب الله الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فهذا الذي اقول فيه بدون تحفظ انه احسن كتاب قرأته بل حفظته ولم ازل اقرأه منذ الصبا حتى لا احصي كم مرة ختمته. ودائما اجد فيه شفاء للنفس، وغذاء للفكر، وشرحا للخاطر، ونورا للبصيرة. لا ادري هل ذلك لاني مسلم، وايماني بالقرآن ايمان عميق، وهو اول كتاب قرأته على الاطلاق، واقترنت مدة حفظي له بذكريات جميلة وبريئة اعد منها ولا اعدها؛ ام لما اجد فيه من معارف واسرار، يتمثل فيها كل ما قرأته من ابحاث فلسفية وادبية وخلقية وطبعية وغيرها في اسلوب يخلب اللب، ويستهوي القلب؟..

على كل حال، الغاية التي من اجلها يقرأ الانسان: وهي لذة العقل، وتكميل النفس، هي ما اجد في القرآن دائما وابدا؛ ولذلك اقول: انه احسن كتاب قرأته واقرأه على الاطلاق!

وثاني كتاب، يحتفظ بمكانة مكينة في نفسي وهو الوحيد من الكتب المؤلفة الذي اكون قرأته مرارا متعددة، كتاب (صحيح البخاري). فهو كتاب دين وشريعة وادب واخلاق وحكمة وسير ورقائق واخبار معاد. ويرجع بعض اعجابي به لصنيع مؤلفه؛ ولذلك فهذا القدر لا يدركه الا من درس حظا من علوم الحديث ودرس غير (صحيح البخاري) من كتب السنة، والبعض الآخر لما في كلام النبوة من الحلاوة والقبول وسذاجة الاخلاص وروح الطمأنينة وغير ذلك كما قال القائل:

وما سمعت اذن كلاما ونغمة ألذ وأشهى من حديث محمد

واني لاعرف ابوابا فيه كلما قرأتها ابكي؛ واخرى تضحكني، واخرى تهدئ اعصابي. ولو كانت في اشد الاضطراب واخرى تبعثني على الرجاء، ولو كنت في اشد حالات القنوط واخرى! واخرى! ومن غير هذا فليس ثم كتب اقول اني قرأتها مرتين او ثلاثا، اللهم الا كتب الدراسة، وما يكون في نيتي ان اعيد قراءته حينما تمكنني الفرصة. ومن هذه الكتب (سر تقدم الانجليز) السكسونيين ترجمة احمد فتحي زغلول، فان هذا الكتاب بصرني بكثير من الحقائق في تقدير الحضارة

العصريـة بمقاديرها الحقيقيـة، وصرت اعرف قيم الثقـافات المعاصرة، ومـا تؤثره في النفس والسلوك. واني وان قرأت بعده ابحاثا اخرى في موضوعه الا اني لا ازال اراه مجليا في هذا الباب.

وكتاب آخر، دائما اجعله على مقربة مني لاتمكن من مراجعته هو: (صيد الخاطر) لابن الجوزي، فهذا الكتاب مجموعة آراء مرسلة في العلم والتربية والدين والاجتماع؛ ولكنه كتاب مؤثر جدا، ومعين على تكميل النفس وتربية الارادة، وتكوين مبدأ سام لقارئه. وقد قرأته قبل مدة قريبة وكان ما يصادفني فيه من الانظار كأنه يعبر عما يجول بنفسي منذ سنين عديدة

وان انس لا انس فضل مؤلفات الشيخ الامام محمد عبده والاستاذ الكبيـر محمد فريد وجدي، والسيد محمد رشيد رضا والشيخ مصطفى الغلاييني، ورفيق بك العظم، والعلامة محمد كرد علي، التي بها امكنني ان اعرف قيمـة الثقافـة الاسلامية والحضارة العربية، واقارنهما بغيرهما من الثقافات والحضارات، واكون لنفسي بعض الافكار عما قرأته على الطريقة القديمة: من كتب التشريع الاسلامي وكتب الكلام والتصوف.

اما في الادب الحديث، والنقد والقصة، فمن احسن ما قرأته واستفدت منه كثيرا كتب العقاد والرافعي وطه حسين ولطفي جمعة وهيكـل والمازني وزكـي مبارك ومجلة الهلال

والمقتطف والرسالة ... ولا اخصص شيئا من كتب هؤلاء فانها كلها جميلة ومفيدة.

بقيت المباحث السياسية، وتاريخ الامم الاسلامية ونهضاتها ومما اقدمه على غيره في هذا الباب، كتابات جمال الدين الافغاني، والكواكبي، ومصطفى كامل، والامير شكيب ارسلان، ومحب الدين الخطيب، وصديقنا احمد توفيق المدني

ولا اختم الكلام بدون ان اشيد بآثار فقيد الشمال الافريقي العلامة المجاهد. المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس التي كان لها كثير من الاثر في توجيهي وانارة الطريق امامي الى كثير من الخير.

